كم سعينا لتغيير هذا العالم بالكتابة والحب والإيقاع والموسيقى

أ. مارسيل خليفه
الموسيقار اللبناني

في هذا اللقاء الحميم في قصر الأونيسكو، ليتني كنت أستطيع أن أكون معكم مباشرة، أن أكون بينكم، أن أجد مقعداً للحنين على وقع الصداقة مع «أبو أحمد».. لكنني أجلس أمام الكاميرا في البعيد البعيد، أتلو وأبوح بهذا النص، رغبة في التعبير عن فرح غامض، عن سعادة ما، وسط هذا الظلام الدامس.

تعود بي الذاكرة إلى سنة ١٩٧٦ عندما ذهبت إلى باريس هارباً من ضيعتي فمشيت مع كوكبة من الأصدقاء، حيث لم تتحمل المنطقة ميولنا اليسارية في حروب صغيرة وكبيرة امتدت حتى يومنا هذا.. والتقيت هناك بالأصدقاء الجدد الذين غصت بهم مقاهي المدينة. ورحت بخجل وتردد أعرض بعضاً من تجاربي الموسيقية الأولى.

كان الأصدقاء الجدد يسمعونني ويهزون برؤوسهم. كريم مروة أدرك يومها تماماً ما هو مشروعي، أو على الأقل جدية ما أحاول الخوض فيه. وفي صباح باكر من شهر آب لسنة ١٩٧٦ دخلت إحدى استديوهات باريس الصغيرة وسجلت أسطوانة «وعود من العاصفة» بعد أخذ ورد ولقاءات مع مسؤولي شركة الأسطوانات الفرنسية Le Chant du Monde «الغناء مع العالم». وظهرت الأسطوانة في احتفالات الـ Humanite بالقرب من بسطة للحمص والفول والفلافل على خشبة الجناح اللبناني.

أتذكّر يا «أبو أحمد» كم سعينا أن نغير هذا العالم وأستبدال فوضاه بالكتابة، بالحب، بالإيقاع، بالموسيقى. وكم حرضنا الناس على الفرح لا الغياب، وعلى الحياة لا العدم.

فتجريدنا اليوم من حقنا في إبداء الرأي على أرضنا هو بمثابة الشك في قمر الحب الذي يغمر ليلنا الدامس بالغصة الصريحة.

نحن الذين لم يبق لنا في هذا العالم إلا «الحلم» نتمسك به كخشبة خلاص ضد هذا المد الطافح بالكراهية والبؤس.

فلماذا يعتقد البعض أننا سوف نتنازل عن هذا الحق. بل سندافع عنه بشتى الأشكال، في حين أنهم يمعنون في غزل الشباك ونصب الفخاخ لأجمل خطواتنا – نحو المستقبل.

صديقي ورفيقي «أبو أحمد». سأظل أحبك اليوم وأنت على مشارف الثمانين كما كنت أحبك شاباً متحمساً وخارقًا. وهذا حق مشاع، كما أعتقد، وليس لأحد مصادرته. أنت الذي ولدت من صخرة جبل عامل متميزاً برهافة عصفور.

ها نحن يحدق بنا الخطر دون أن نملك دفاعاً غير هذه الكلمات وهذه الأفكار، والإيمان الأعظم بأننا ذاهبون إلى مستقبلنا الذي نريده ونحلم به، بالرغم من كل محاولات تعطيل خطواتنا وتعويق ذهابنا الفاتن.

أصدقائي،

اسمحوا لي أن أرى في مشاركتي اليوم بهذه الأمسية الخاصة بكريم مروة موقفاً ثقافياً، إبداعياً، فكرياً، إعلامياً يتجدد بطبيعته، والتأكيد على حقيقة يقولها كل منا بطريقته، بعمله، بموقفه، وخاصة عندما يكون الوطن على ما هو عليه من حكم طائفي ومن تفكك وتشرذم. فليس الفكر هنا محايداً، ولا الموسيقى هي أيضاً

محايدة. وموقفنا ليس إلا مع قلب المواجهة المحررة للإنسان وللوطن في آن، وللسلام الداخلي مع النفس والسلام مع الآخرين من ذوي القربى الفكرية، الأصدقاء والأصدقاء، حيث حاجتنا كبيرة إلى الهدأة الداخلية والطمأنينة، والشعور العميق بالقيم العظيمة التي تحفظ للإنسان الإنساني فيه، وحيث الحاجة كبيرة إلى ألسنة العلاقات بين البشر وإعادة تأسيسها على قواعد والإختلاف والتسامح والمحبة والإنصاف واحترام الكرامة ونبذ العنف والتعصب والطائفية والقهر والإضطهاد والإحتلال.

يا صديقي- يا .أبو أحمد.

لعلك توافق معي على اعتبار هذا الإحتفال وجهاً من وجوه التعبير عن مسؤولية ما تجاه الثقافة والفكر وتجاه الناس والوطن في آن. نرفض فيه تهمة «التسييس» التي تشهر بوجه القلم والريشة ولا تشهر إلا لعرقلة نهوض البحث والإبداع وإلى اتخاذ موقف ثقافي ووطني. وإن المروجين لهذه «التهمة» هم الذين يمارسون، بالحقيقة، أبشع أنواع السياسة، سياسة تدمير الفكر والثقافة وإخضاع المفكرين والمثقفين لقوى القهر المتعددة الأشكال، سياسة إخراجنا من معركة شعبنا وسياسة التهميش.

يا كريم مروة-

تابع ما بدأت به من سنين وأسهر على حماية الفكر ليصبح حصناً لا يهزم. لا تهدأ وأنت في الثمانين لا في مكان ولا في قالب ولا في حالة... إبحث دائماً عن تلك الشمس الحارقة حتى لو ذابت مع أفق بعيد، وأعيد صياغة الحب والشوق والولع والنخيل والإيقاع والموسيقى، صوتاً مبدعاً لا مستتبعاً. أبحث عن بيان جديد نستأنف فيه الرحيل نحو ضفاف أخرى ومفردات أخرى للتعبير النظيف عن العالم والذاكرة والوطن والحياة في رحلة إلى المستقبل «الغامض» (نحبه غامضاً دائماً)

يا صديقي .أبو أحمد.

هل تستطيع هذه الأمسية أن تخلصنا من ثقل أشياء عديدة ترمي بوزنها على الذاكرة كما على الجسد والروح، وكأن سنين الحياة تهرب ونحاول أن نلتقطها، أن نستوقفها، أن نستدعي كل شيء مجدداً لنروي مع إيقاعها بشكل مفتوح قليلاً من المعنى.

يا رفيقي .أبو أحمد.

ليس لعلاقة الإنتماء التي تربطني بالفكر الذي حملته سوى واحدة من بين العناصر العديدة التي أعتز وأمجد بها حياتي بلا تردد. ربما الحياة سوف تخلو من المغزى إذا خلت من هذا الإنتماء وافتقرت إلى الحب، لأني أرى مع الإنتماء سلوكاً إنسانياً في الدرجة الأولى.

صديقي

لا أستطيع أن أرى حدوداً مع صداقتك، أراها مفتوحة على كل الإحتمالات. وأرغب في أن تصدقني بأنني أطمع بأن أتوصل إلى ممارسة حريتي إلى أقصاها وأن أحقق أمنية، ذات يوم، بأن أصبح واحداً منكم، كما قلت لك في عيد عمال عمشيت في سبعينات القرن الماضي، عندما أتيتنا مع عروستك نجوى.

أحييك ومبروك لبلوغك سن الرشد. وحاول أن لا تشعر بذلك الزمن الفيزيائي الذي يتلاشى مع الجسد. أرى من البعيد سعف نخيل وغصون زيتون، أرى أولاداً وشموعاً. أسمع تراتيلاً وأنغاماً ورجع أجراس.

النساء خرجن وفي أيديهن أرز وزهر. الموكب يقترب والأغنية طالعة من الجسد.

يطير الحمام، يحط الحمام